"ملف ك." جديد إيمري كيرتيس

أنا يهودي لكني لا أشعر بالانتماء ولا حاجة لي إلى ذلك

تحت الضوء

بودابست...
صدر للكاتب المجري إيمري كيرتيس كتاب جديد عنوانه "ملف ك." في 261 صفحة من القطع الصغير، وقدمت دار النشر الشهيرة Magvető الكتاب في أمسية أدبية انعقدت أخيرا على مسرح رادنوتي في العاصمة بودابست، حيث تحاور مؤرخ الأدب لاسلو شريني مع الكاتب الحائز نوبل الآداب عام 2002، ثم قرأ كيرتيس مقاطع من كتابه بمشاركة الممثل القدير أندراش بالينت مدير مسرح رادنوتي. بعد انتهاء الأمسية الأدبية التقيت الكاتب الذي قدم إلى بودابست من محل إقامته الحالي في برلين خصيصاً لهذه المناسبة، وقدمت له نسخاً من الترجمة العربية لعمليه "لا مصير" و"الراية الإنكليزية/ المحضر" اللذين توليتُ ترجمتهما وصدرا عن "دار المدى" عام 2005.

"ملف ك." هو في الأصل فكرة لمدير دار النشر، وافق عليها كيرتيس: حوار طويل معه يجريه الباحث زولتان هافنر خلال عامي 2003 و 2004. هكذا تم تسجيل ساعات طويلة من المحادثة عن حياة كيرتيس وآرائه. غير أن الكاتب أعاد كتابة المسوّدة التي تسلّمها من هافنر ليصبح الكتاب أحد مؤلفاته الفعلية، مكثفاً ودقيقاً في عباراته وكلماته كما عوّدنا في كل أعماله. الكتاب إذاً سيرة ذاتية، يتحدث فيه الكاتب عن حياته، طفولته وعلاقاته بعائلته، بأمه وأبيه، بزوجة أبيه وزوج أمه، وبأقاربه. عن العام الذي أمضاه في معسكرات الموت، والذي وصفه في روايته الأولى "لا مصير" وصفاً غير مسبوق، وعن حياته في ظل ديكتاتورية راكوشي الشمولية، التي وصفها في قصة "الراية الإنكليزية" الرائعة، وأيضاً عن حياته الأدبية وقراءاته. يتبسط كيرتيس في تفصيل رؤيته للحياة وتجربته المريرة في معسكر الإعتقال النازي وموقفه من الهولوكوست، المتمثل في رفضه تحويل محرقة اليهود الأوروبيين اسطورة تغلفها هالة من القدسية يحرم المناقشة حولها والتفكير فيها. آراء كيرتيس في هذا الموضوع جديرة بالإهتمام ومدعاة للتفكير، وهو القائل في مقابلة مع صحيفة مجرية: "لا أريد أن أصبح كاتباً رسمياً للهولوكوست، لديَّ رؤيتي الخاصة، وأطمح إلى الحفاظ على ذلك". ولتوضيح ذلك أكثر نقتبس هذه الفقرات من عمله الأخير "ملف ك.":

يتحدث كيرتيس في كتابه عن المعتقد، فيقول: "أنا يهودي. لكني يهودي لا علاقة لي بأي نمط من أنماط الحياة اليهودية المعروفة قبل اوشفيتز. ولست باليهودي التقليدي الأصيل، ولا باليهودي المندمج. ولا حتى بإسرائيل. لعل هذا القول الأخير هو الأصعب عليَّ... أعتقد أن كلمة الإنتماء هنا لا معنى لها. لا أشعر بالإنتماء، ولم أكن يوما في حاجة إلى ذلك".

عندما التقيته، اشتكى لي كيرتيس من أن صحافيا عربياً تجاوز معه مرّة حدود اللياقة، لكنه لم يدخل في التفاصيل ولم يفصح عن اسم الصحافي. لا نستغرب ذلك، لأننا إذا استثنينا ما نشرته بعض الصحف العربية الجادة، فإن غالبية ما صدر في كثير من الصحف العربية صبيحة إعلان فوز كيرتيس بجائزة نوبل للآداب عام 2002، لم يخرج على إطار اتهام الأكاديمية الأسوجية بالإنحياز، وإدخال الأمر كله ضمن اطار نظرية المؤامرة الصهيونية والإمبريالية التي ما لبثنا نجترها منذ ضياع فلسطين حتى هذه اللحظة تعويضاً عن عجزنا الظاهر. كثيرون ممن كتبوا عن منح كيرتيس جائزة نوبل، لم يقرأوا سطراً واحداً من أعماله، ولم يتركوا جانباً الأحكام الجاهزة والتصورات والتخيلات والإعتقادات ليبنوا عن أعمال كيرتيس رأياً مستقلاً، سلبياً أكان أم إيجابياً.

من ابرز أعماله: "لا مصير" 1975، "الفشل" 1988، "الهولوكوست كثقافة" 1993، "المحضر" 1993، "تأريخ التحولات" 1997، و"التصفية" 2003.

يعيش في برلين منذ سنوات، ولا يزور المجر إلا نادراً. أحد أسباب ذلك، هو الفتور الشديد الذي يتعامل به الوسط الثقافي في المجر مع كيرتيس، حتى بعد حصوله على نوبل، وخصوصاً النفور الذي تقابَل به دراساته وآراؤه الغريبة نوعاً ما. فهي جريئة، لكنها لا تخلو من بعض الطوباوية والتناقض، ولربما التطرف. على سبيل المثال، يعلن كيرتيس في روايته "يوميات العبودية" (صدرت في 1992): "اوشفيتز أكبر صدمة للإنسان الأوروبي منذ الصلب"، فيسأله هافنر عن ذلك في "ملف ك.": "ألا يزال في امكانك الحديث اليوم عن اوشفيتز والصليب في الجملة نفسها؟"، فيجيبه الكاتب: "تتوضح في هذه العلاقة الأهمية الاستثنائية لاوشفيتز بالنسبة الى الإنسان الذي تربّى في أحضان قيم الثقافة الأوروبية. فواحد من قوانين هذه الثقافة المتلخصة في الوصايا العشر يقول: لا تقتل! والآن عندما يُسمح للإبادة الجماعية بأن تصبح ممارسة يومية، لا بل مهنة عادية، عندذاك يجب أن نقرر: هل قيم هذه الثقافة المتخيّلة هنا في أوروبا والتي نتعلمها جميعاً منذ المدرسة الإبتدائية – قتلةً وضحايا على حد سواء - لا تزال قائمة أم لا؟".

تكمن أهمية "ملف ك." خصوصا في انه يوضح الكثير من النقاط المثيرة للمناقشة في أعمال كيرتيس، ولنقل انه يضع النقاط على الحروف. به تتفتح الشبابيك فجأة لتنفذ هذه الأسرار الصغيرة مع ضوء الشمس، وهذا شأن كل حوار ذكي تُطرح فيه أسئلة عميقة وحقيقية. كذلك فإن كتاب "ملف ك."، عدا كونه وثيقة دقيقة وتسجيلاً لسيرة حياة كيرتيس، عمل أدبي في الوقت نفسه – في لغته وبنائه وثناياه، مليء بالمفاجآت والآراء الجريئة، وقراءته ممتعة ومفيدة على السواء. ونأمل أن نراه في ترجمة عربية قريباً.

ثائر صالح

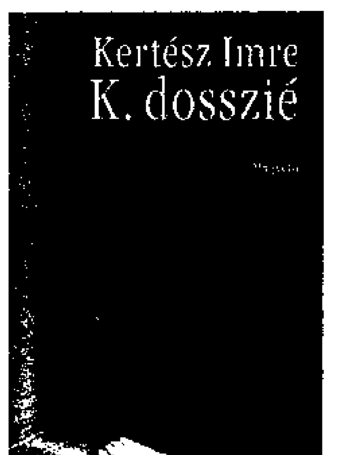

مقتطف من الكتاب

هافنر: في مقابلة اجريت معك عام 2003 قلت أنك كتبت "لا مصير" عن نظام كادار، الأمر الذي أثار مناقشات واسعة، وقال الكثيرون أنك خنت الهولوكوست.

كيرتيس: كانت هذه المناقشة جاهلة وغير مسؤولة، تماماً مثل استعمال كلمة هولوكوست بطريقة تتجاوز كل الحدود. فهم لا يجرؤون على تسمية ما حدث باسمه – مثلاً "إبادة اليهود الأوروبيين"، كما يتحدث راوول هلبرغ في عمله المهم – بل عثروا على كلمة لا يفهمون محتواها، ووضعوها في نظام مفاهيمنا بعدما أمّنوا لها موقعاً طقسياً متحجراً لا يمكن المساس به، ثم دافعوا عنها كما يفعل الكلب الذي يحرس البيت. كلما اقترب منها أحد ليحركها قليلاً علا نباحهم عليه. أطلق على "لا مصير" صفة رواية هولوكوست مطلقاً، كما اعتاد الآخرون فعله، لأن لا يمكن التعبير عما يسمّونه هولوكوست في رواية. أنا كتبت عن حالة، ومع أن الرواية تطمح إلى صوغ خبرة انسانية من تجربة معسكرات الموت التي لا توصف، فإن ما شغلني في الدرجة الأولى هو النتائج الأخلاقية للحياة في المعسكرات والحياة بعدها. تجربة معسكرات الموت تصبح خبرة انسانية في الوقت الذي نعثر على عالمية التجربة. وهي عبارة عن حالة اللامصير، وهذه سمة مميزة للديكتاتوريات، حيث تستحوذ على المصائر وتؤممها وتحولها مصائر عمومية، تستلب من الإنسان جوهره الإنساني. الرواية كتبت في الستينات والسبعينات: وأنا أتساءل، أي رواية هذه التي لا تحمل بصمات عصرها، لغته وعالم أفكاره؟ لماذا يتصورون فترة حكم كادار على أنها ليست ديكتاتورية؟ إنها كانت كذلك بالفعل، وبامتياز، ونعثر على حقيقة اوشفيتز في كل ديكتاتورية تأتي بعد اوشفيتز. غير أن معرفة هذه الحقيقة والإعتراف بها يعتبران فضيحة ضمن الأفكار السياسية المتحجرة في السياسة المجرية. وأنا بهذا لم أقل إن الهولوكوست كان مثل نظام كادار؛ إنما أردت بذلك أني فهمت تجربتي في اوشفيتز بشكل واضح أثناء نظام كادار، وما كان في الإمكان فهمها فيما لو ترعرعت في ظل نظام ديموقراطي...

هافنر: تستعمل كلمة اوشفيتز كمفهوم واسع: ما هو اعتراضك إذاً على كلمة هولوكوست؟

كيرتيس: عثرت في كتاب الفيلسوف الإيطالي جورجيو آغامبن، "ما يبقى من اوشفيتز"، على التعبير الكامل عن اعتراضي الفطري. يقول: "ينبع تعبير الهولوكوست غير الموفق من الحاجة اللاواعية إلى إيجاد تفسير للموت بدون سبب، حتى يمنحه معنى ما، وهذا أمر لا معنى له تماماً". يعرج على ايتمولوجيا الكلمة، وجوهرها أن الكلمة اليونانية القديمة holocau(s)tos هي في الأصل صفة؛ معناها "محترق تماماً"؛ ثم يقودنا تأريخ هذه الكلمة إلى عالم مفردات آباء الكنيسة الأوائل، وهذا أمر نترك مناقشته الآن. بقدر تعلق الأمر بي، فأنا أستعمل الكلمة، لأنهم جعلوا ذلك أمراً لا يمكن تجنبه، غير أني أعتبرها تلطيفاً للأمر واستسهالاً جباناً خالياً من الخيال".

ترجمة ث. ص.

فنانون أميركيون على درج مار نقولا

خارج نقاط الإثارة والابتكارات الفوّارة

معرض

يتنمي معرض "فنانون من نيو جرسي يطبعون: خمسة عشر عاما ابتكارياً في فني الحفر والطباعة وصناعة الورق" بمحتوياته الثلاثين الى التيارات الحديثة في الفنون الاميركية غير النيويوركية، اي الى تيارات تتفاعل من منظار خصب مع المناخات الثقافية في الداخل الاميركي والتي تتزيّا بحسب هذه الولاية او تلك، بأشكال ومفردات وتفاصيل تشي بالهوية الاصلية لكل فنان في بلد يدل بأنه الثمرة المخمّرة لهجرات من شعوب العالم كلها.

يلفت المعرض أولاً الى الاهتمام القوي بفنّي الطباعة وصناعة الورق في الولايات المتحدة، انطلاقاً من حضور الطباعة في العالم المعاصر، "ونحن في الزمن ما بعد الصناعي والرقمي"، وخصوصاً "ان فن الطباعة يوفر هذا التجاوب بين الفن والتكنولوجيا". كما يكشف رغبة منظمي المعرض في ابراز الموقع الحيوي لولاية نيو جرسي في حياة تشكيلية اميركية تعيش مرحلة فوران تجعل كل مدينة اميركية حقل تجارب غير محدود. من المعلومات العامة عن المعرض "ان عشرة في المئة من الفنانين يعيشون اما في جنوب الولاية او على سواحلها، وان ثلثهم من اصل افريقي او لاتيني او آسيوي، وان معظمهم من النساء".

يحمل المعرض الملامح السردية الحرة، واذا حكى بالمعنى العادي فنبرته تظل على مسافة من الطابع الحكواتي كأنها تكتفي بالتعبير المختزل حتى درجة الايحاء بالامر، مع الانحياز الصريح الى الكلام عن الذات، كما الحال في الربع القرن الاخير في معظم الفنون، الحديثة منها والمعاصرة. من هذه الزاوية يتزيّا المعرض بما هو شائع حاليا بأنه مركّز على فرديات قائمة في ذاتها من الناحيتين التشكيلية والروائية، وبأنه بعيد كل البعد عن التوزع على تيارات ومدارس كما كان الامر حتى الامس القريب. لكنه في المقابل يضعنا امام مجموعة من الأطروحات الشكلية تؤكد لزائر درج الفنون في محلة الجميزة، المنحى التجريبي لفنانين يتشددون مع انفسهم كما امام مرآة، في التنقيب العنيف عن خصائص، ثمة في التعرف اليها مصالحة مع الذات.

يفرض المعرض التمحص في المقاربات التي يستعملها كل من هؤلاء الفنانين، لاختبار تقنيات الحفر التقليدية والفوتوغرافية، كما في الاساليب الرقمية. فاذا هم التقوا معا فبهدف اعطاء كل منهم اللغة التي يعمل بمفرداتها القالب الحفري، في محاولة منه للتوفيق بين ما هو عليه في بناء نصه التشكيلي وما يقدمه له التواجه مع فن الحفر بكل ادواته ومواده وتقنيات صناعة الورق باليد الحرفية في زمن التصنيع المتطور جدا وحلول الشاشات، من العادية الى الرقمية، في واجهة ادوات التعبير. تمثل الاعمال المعروضة جزءا بسيطا من معرض لمئة فنان برمجته ولاية نيو جرسي لدورة حول العالم تشمل 28 مدينة بينها بيروت.

يشي المعرض، بكثير من الخفر، بهموم عيش تبدو من خلال محتواها كالصدى المباشر لجزئيات من حياة اصحابها. وتلتقي الاعمال التجريدية في هذا المعنى، مع الاخرى في وصف مرويات بما قلّ ودلّ من المفردات، كأنها تنحو في بناء نصوصها التشكيلية الى صون "الفكرة" المركزية للعمل من الترهّل الشكلي كما من الانحلال في مفردات تتلاشى على سطح العمل. وهي بذلك على صلة صريحة بالسائد حالياً في الفنون العالمية – والامر هو على هذه الصورة عندنا في لبنان -، اي بالعودة المركّزة الى الفنون ذات المحتوى السردي، وذات الادوات المتحررة من كل منطق تراثي، اذ يحق لكل فنان ان يوظف في عمله الفني كل ما يخدم مشروعه.

يذهب البعض الى ربط العمل الفني بأدوات بنائه وتقنيات كتابته استناداً الى رأي متداول مفاده ان كل الافكار جرى قولها ولا يبقى سوى كيفية التعبير عنها في اطر مجبولة بإنسان اليوم وبعصب لغته. ينحو فنانو المعرض الى صقل مفردات بأدوات من زمن قلق يطرح على نفسه الاسئلة المركبة حول المفاضلة بين التقنيات الموروثة كالحفر على الزنك والنحاس والحجر والخشب والتقنيات الفوتوغرافية او تلك المنتمية الى الاساليب الرقمية. غير ان معظمهم يتصرف كأنه معني اولاً بما يحرك مشاعره وبواطنه او يتحدى فيه وجوده، وسط ظروف خاصة في مجتمع يحيا فيه خصوصياته كما يرغب، وضمن اجواء ليست دوماً كما يحلم.

يضيف المعرض كمّاً غنياً من المعطيات الموثقة بالامثلة المحفورة او المرقمة او المصورة فوتوغرافياً، تصبّ جميعها في تثبيت معارف عن الفن الاميركي عند المفصل الحار جداً للقرن الحادي والعشرين، فضلاً عن كونه المدخل العملي الى نماذج في متناول العين الحية من الفن الاميركي. كأن الفن يفقد تدريجاً جزءاً عريضاً من قدسية متحفية رافقته على مدى قرون ليكتسب دوراً استهلاكياً عابراً، بدايته الحكي السردي المحصور بذات الفنان لينتهي حيث النهايات التي تعرفها الفنون على الورق، كمادة سريعة العطب. كان آندي وارهول هو الذي اطلق هذا التقليد حين اعلن "ان العمل الفني مرحلي وان على الذي ينتهي منه ان يرميه في سلة المهملات ليقتني غيره".

ثلاثون عملاً بين حفر باليد على مواد تراثية واستعانة ذكية بالتقنيات الفوتوغرافية والاساليب الرقمية، تبوح بأكثر مماتروي، وتفتح النوافذ السرية على ما وراء الستارة الاعلامية من علامات مخنوقة لنصوص كأنها في مراوحة مزمنة، او كأنها تؤكد الطابع الثانوي والفقير المضمون لاعمال محاصرة بضيق مروياتها وببدائية تقنياتها. جدير ان نشير الى غياب عنصر الابتكار الفعلي عن مجمل الاعمال، في معرض يبقى مجتزأ، نظراً الى ان معروضاته تم اختيارها محلياً من اعمال لمئة فنان تؤلف المعرض الفعلي المبرمج للدوران حول العالم.

معرض للزيارة وأخذ العلم، بما يقدمه من تجارب في ميدان صناعة الورق وتقنيات استعمالها في فني الحفر والطباعة، على الرغم من المحتوى البدائي عموماً لاعمال يطل معظمها خارج نقاط الاثارة في زمن الابتكارات الفوارة، في عالم يعيد تحديد مفاهيمه لمعنى الفن وتقنيات انتاجه وتجديد ادواته ومواده.

وهو للزيارة لأنه يمزج بعفوية شابة بين ارث فنانين من اتنيات عدة وحداثات تبدو كأنها غير مستوعبة بما يكفي لتوصل الى فن، حضورّه جدير بالسفر الى بعيد.

نزيه خاطر

تصوير ميشال صايغ

"دلال الوردة" ليحيى البطاط

للتحليق لا بد من أجنحة محنكة

كتاب

"كان يمكن ان يسقط الفم في المذيان لولا حكمة الصمت"، بهذه الجملة يفتتح العراقي يحيى البطاط مجموعته "دلال الوردة" الصادرة لدى "دار أزمنة" الاردنية. ولو شئنا استخدام جملته نفسها معياراً نقيس عليه حدود البوح والمذيان او الصمت والامتناع في شعره، لخرجنا بنتيجة متفاوتة المؤشرات لقصائد تحلّق على ارتفاع منخفض اذا جاز القول. ذلك ان شيئاً من الارتباك يلف معظمها من لحظة اقلاعها حتى هبوطها ويحول بينها وبين التفتّح التام. لكأن الحيرة التي تكتنف كل بداية، تنجح في التسلل الى النص لتقيّده وتبقيه متردداً ازاء تطوره وبلوغ مقصده. وهنا لا بد من القول انه اذا كان للكلام شروطه فللصمت طقوسه ايضاً. وهذا بالتحديد ما لا ينجح الشاعر في التقيّد به، بحيث يبدو في اكثر من مكان، ورغم ان لا قصائد طويلة في المجموعة، كأنه ينطلق في جملته بحثاً عن لقطة لمّاعة، فإذا وقع عليها استغلها حتى الاستنفاد، او ما يقاربه، غافلاً عن اللحظة التي يجدر به التوقف عندها لكي لا يجازف بإفراغ لقيته من شعريتها التي كانت ستكفل لها النبض والحرارة اللازمين.

واذ يظل بالتالي عند المسافة الوسطى من كل شيء، إن في تعامله مع اللغة او في تعاطيه مع الفكرة، يصير التفاوت سيد الموقف. فبين عبارات ذات طرح اقرب الى المتداوَل على غرار "لكِ انتِ/ وليس لسواكِ/ تتألم النظرة"، او اخرى تقترب من تحقيق جمالية مشهدية معقولة مثل "في كل مرة/ كان يتساقط/ ويسمّي ارتطامه قبلاً"، يبقى الخطاب الشعري اجمالاً كأنه لا يزال اسير ثمانينات القرن الفائت ومعزولاً عن التطور الذي لحق باللغة الشعرية بفعل الاحتكاك مع تحولات الحياة المختلفة. واذا كنا نشير الى غياب هذه البلورة هنا رغم ان الكثير مما ينشر اليوم يعانيها، فلأننا ازاء المجموعة الثانية للبطاط بعد اولى صدرت في 1988 تحت عنوان "تموت الشظايا". اي ان ثمانية عشر عاماً بين مجموعة واخرى كانت كافية مبدئياً لاختمار لغوي واسلوبي يحاكي ايقاع زمنه.

لكن اذا تغاضينا عن هذه المفارقة وقرأنا الديوان كما لو انه صدر من عشر سنين على اقل تقدير، نجد ان الشاعر يبني فيها ملامح عالم من رومانسية منطوية على حزنها وخذلانها، تطلّ على اختبارات الحياة حسياً وعاطفياً في الوقت نفسه: "كم اكره الجوع والوداع"، يقول من دون ان يحدد نطاق كل من الشعورين، كأنهما يتداخلان بحيث يصير الخواء الناتج من كل منهما واحداً. وفي موازاة الخيبات المتتالية يولد الشك ليحرّك ركود اليقينات: "الوردة، خدعة العقل ايضاً"، واضعاً جماليات الحياة المتعارف عليها مجدداً تحت السؤال. وفي اجواء مثل هذه، يبدو الحضور المتواتر لتيمة الموت على طول المجموعة محتماً: "كم أراني.../ احلم بهذه اليد/ تشبه فزاعة/ اراها تلوّح من بعيد/ لكم ايها الموتى/ وانتم تنقّرون/ في حقل احلامي"، يدٌ تلوّح لتطرد ام لتستقبل؟ لا فرق طالما ان الشك نفسه يعود ليطال الموت هذه المرة: "وحدها اللغة ما يتبدد/ الموت ليس خسارتي الأكيدة".

"مع كل هذا الحزن يصبح الليل ترفاً"، يقول في القصيدة الاخيرة بعنوان "تحليق"، الا انه لا يستسلم لسوداوية مطلقة تاركاً في الجدار كوة من ضوء يتسلل همساً لينفخ في رماد الخيبة الامل بـ"معجزة اخيرة" يقترفها الحب "قبل ان ينهي سيرته المدججة بالاحاجي": "حسناً.../ يمكنك ان تطيري ايتها الوردة/ ما عليك الا ان تفردي جناحيك/ وتفكّري في السماء".

سيلفانا الخوري
sylvana.elkhoury@annahar.com.lb

يوم في حياة

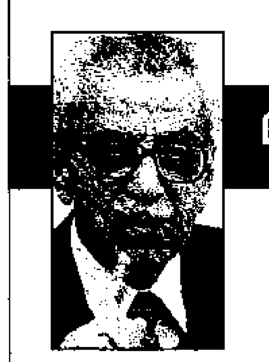

حبيب صادق

كثيراً ما حاولت، انما كثيراً ما أخفقت فاستسلمت، اخيراً، لجبر تلك العادة النمطية الفظة استسلام من لا حول له، بعد، ولا قوة.

فامتثالاً لأمرها اليومي النافذ استيقظ في السادسة صباحا سواء طال سهري أم قصر في صحبة قريب او صديق او كتاب، وغالباً ما يطول سهري في صحبة الكتب والمجلات والاوراق البيض.

ان ذئب اليقظة لا يقتحمني، في هذا الموعد الصباحي، الا لغاية في غريزته لا ثانية لها هي الدعوة الآمرة الى احتضان جهاز الراديو بين يدي، في السرير، والانتقال بمؤشره المرهف الحركة، من محطة اذاعية الى اخرى، بحثا عن صيد اخباري في غابات هذا العالم وأقاليمه المنطوية، على كبرها واتساعها، في هذا الجرم الصغير البالغ الدقة والشديد الحساسية.

يا له من امتحان يومي شاق لا مناص لك من الخضوع لقدره والصبر على مكروهه في اعصابك وفي وجدانك والضمير...

لعلك من غير نخبة الملمّين بنظريات الاعلام وآلياته، في عصره الثوري الراهن، فكيف تتمكن، اذاً، من الادلاء برأي نقدي في شأن من شؤونه؟ انما تستطيع، برغم ذلك، ان تتساءل تساؤل الموجع القلب، عن تلك الحمّى التنافسية التي تصيب وسائل الاعلام كافة في سعيها المحموم الى اقتناص المشاهد العارية لكوارث الطبيعة ونكبات البشر في حروبهم الصغيرة والكبيرة وتلك العابرة القارات. وهي، هذه الوسائل، تفتنّ في سوقها تلك المشاهد الى سمعك والبصر، على هذا النحو او ذاك، من صور الاثارة والاستحواذ المطبق عليك فلا تقع، معها، على غير المساخر السود والواقعات الداميات هنا وهناك في بقاع البسيطة.

فمن قعقعة الكلام الخشبي في ساحة النجمة، وسط غاب من ضواري الطائفية وزواحفها السامة الى سكون القطبين المتجمدين في قرني الكوكب لا تسمع الا انباء العنف المجنون في أحطّ صوره وابشعها على الاطلاق.

فمن شاطىء غزة المحاصر تستصرخك دماء الاطفال المائمة على وجوهما... ومن احياء بغداد وضواحيها تستنجد بك الرؤوس المقطوعة باحثة عن اشلاء اجسادها... ومن دارفور، من الصومال، من افغانستان ومن... تدور بجنون هائج، عجلة القتل الجماعي والتدمير الفوضوي الشامل...

في هذا المحفل الجنائزي من المشاهد الصباحية كيف يتأتى لك أن تستقبل بياض نهارك بوداعة الوقت الندي المحايد؟!

ألا تستحضر، في ذاكرتك، حيال هذه المشاهد، صوت أبي تمام، من سحيق الاعوام، وهو يخاطب صاحبه الغائب:

عادت له أيامه مسودة
حتى توهّم أنهن ليال...

ترى ما هذا الجنون المنفلت من عقاله الذي يعصف عاتياً في جنبات الارض ملقياً بثقله الساحق على أرضنا الخراب وعلى ناسنا اللاناس الذين لا يغضبهم المنكر الفاحش في قول أو فعل وتراهم سكارى وما هم بسكارى الاّ أنهم رعايا جاهلية مستعادة وأسرى خوف ومدمنو استلاب.

فمن أين يهبّ هذا الجنون العاصف؟ أمن موقع الانسان المخيّر في هذا الوجود أم من موقع القدر المحتوم؟

ألا يصحّ في حالنا ما ذهب اليه الشاعر من تساؤل مريب موجع:

عمّ "الجنون" فمنك يا زمني
تعميمه أم منك يا زمنٌ
والناس لا ناس فيحفظهم
ما أنكرته العين والأذنٌ

* * *

وبعد فعقارب الساعة تستكمل دورتها وأنت ما برحت تتابع، على جاري عادتك الصباحية، مسلسل المشاهد السادية، الحديثة الولادة، في هذا الجيب المتقرّح او ذاك من جيوب الكوكب الارضي، واذ بصوت المذيع يطالعك بخبر مفارق، خارج عن سياق نشرة الفجائع، خبر، معافى، يزف اليك بشرى افتتاح "كأس العالم" فتسترخي منك الاعصاب وتنفرج الاسارير وتسعى، بشغف الى التقاط المزيد من التفاصيل استكمالاً لصورة هذا الحدث الاكثر شعبية والاشد سحراً في أرجاء الدنيا.

وربما استوقفك، في هذا الصدد، كلام الامين العام للأمم المتحدة كوفي أنان. فإعجاباً بمباريات كأس العالم الجارية في المانيا راهناً، أعرب السيد أنان عن تمنيه في أن تحظى المنظمة الدولية بكثير او بقليل من السحر الذي يتمتع به الاتحاد الدولي لكرة القدم، وذهب الى الاعتراف علانية بـ"ان كأس العالم تثير لدينا في الأمم المتحدة قدرا كثيرا من الحسد ومن الغيرة... لأنها اكثر عالمية من الامم المتحدة".

لم يرسل السيد انان كلامه على عواهنه، مجازفا بصدقيته، بل ارسله تعبيرا عن اقتناع عام، وليس خاصا، بأن لعبة كرة القدم باتت تحتل، في هذا العصر، منزلة لدى جماهير الشعوب، على تعددها وتنوعها وتوزعها، لم تبلغها المنظمة الدولية. ولعل ابهى ما تجلت به هذه المنزلة صيرورة كأس العالم عرسا امميا لا يخلو بيت، في المعمورة، من فيض اطايبه ومسراته وطرائفه.

بهذا الحدث الرياضي الساحر تعانقت هويات امم مختلفة وتلاقت حدود دول متباعدة وسادت عولمة انسانية ما فوق عولمة الرأسمال النهوم. وحيال هذا التجلي شبه الاسوري، نتساءل بألم وأمل، لماذا لا يتسرب قبس من روحية هذا الاجماع البشري الى محفل القوى الدولية الممسكة بمقاليد الامور في هذا العالم والمتحكمة بمصائر شعوبه قاطبة؟!

وبعد، فانهض، من صباحك الى استقبال بقية يومك معالجا شؤون الحياة الكثيرة المتنوعة المرهقة سواء في المنزل ام في المكتب او في ما بينهما، واصبر وصابر الى صباح يوم آخر.

(خاص بـ"النهار")

(*) الثلثاء المقبل "يوم في حياة" نبيل سليمان.